بين مكسيم جوركى ولينين

من علامات العصر الحاضر وخصائص تفكيره اتجاه الكتاب الخالقين وممثلى الثقافة الحـــديثة إلى معالجة الشؤون الاجتماعية ، والخوض فى المشكلات العملية ، والانحياز إلى أحد معسكرات المذاهب السياسية المتطاحنة . وفى الماضى القريب كانت مسألة تقسيم الكتاب والمفكرين تبعاً لرأيهم فى نظام الحـكم والمبدأ السياسى الذى يؤثرونه ويناضلون عنه تكاد تكون وهما من الأهام ومذهباً خاطئاً من مذاهب النقد والتحليل ، والأمة الوحيدة التى كانت تخرج على هذه القاعدة وتشذ عن تلك السنة هى الأمة الروسية . فقد كان المألوف عند الروسيين أن يعبر الشعراء والكتاب والنقاد عن ميولهم السياسية ونزعاتهم الحزبية ، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر لم يستطع أكثر كتاب روسيا الفرار من مواجهة مشكلاتها الاجتماعية وأزماتها السياسية . وقد كان اسكندر بوشكين كبير شعراء الروس ضالعا فى ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وأعدم الشاعر رايلييف لأنه كان من جناتها وقد آزر الثائرين رجال الأدب وزهرة المفكرين . وكتاب « مذكرات

صياد » الذى وضعه الكاتب الروائى العظيم إيفان ترجنيف كان يعد من الحوادث الاجتماعية الهامة التى أثارت الضمائر وهزت النفوس ، وكانت عاملا من عوامل تحرير الفلاحين ورفع نير العبودية عن كواهلهم . وآراء طولسطوى فى التقليل جهد الطاقة من سلطة الحكومة ونبذه سلطان الكنيسة ودفاعه عن الطبقات المظلومة جعله قوة هائلة فى روسيا ، مؤيدة للتعاليم الثورية . وقد مرت بالأدب الروسى فترات متقطعة كان يؤثر فيها القيم الفنية والأدب الخالص ، ويضعهما فوق سائر القيم ، ولكنه فى اتجاهه العام وحركاته الشاملة كان يقترب على الدوام من النقد الاجتماعى والنزعات السياسية . وكان يروق الشعراء والروائيين والقاصين أن يلتمسوا الموضوعات التى تنطوى على تحد للسلطة ومناوأة لتقاليد المجتمع ونقد للأحوال العامة .

وليس فى مستطاعنا أن نقدر مدى تعمق هذه الاتجاهات الأدبية عند الروسيين إذا أغفلنا الإشارة إلى حقائق حياتهم وحوادث تاريخهم ، ولروسيا ظروفها الخاصة وملابساتها الاجتماعية ، ونظمها السياسية والدينية التى تسوغ هذا الاتجاه ، وتبين ضرورته ، وخضوعه لمنطق الحوادث . فقد كان نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فريداً عجباً بين النظم الأوربية لأنه كان قائماً على بقاء العبودية ، ولما ألغيت العبودية وعطلت أحكامها ظل هذا النظام الاجتماعى مرتكزاً على الاحتفاظ بالحكم الأوتقراطى المطلق ، ومن ثم كانت الحياة الأدبية والنزعات الفكرية ثورة على هذا الجمود ومقاومة لهذا الطغيان الذى كاد يمحو الحياة ويشل القوى . وكان

لزاماً على الكتاب والمفكرين والمصلحين أن يتعاونوا على مكافحة الخرافات والجهل والاضطهاد والقسوة ، وأن يعملوا على تأكيد القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية فى مثل ذلك الجو الخانق والسجن المطبق الذى شيدته يد الاستبداد . وقد كان بعض القياصرة يبدأ بداية حسنة مبشرة، ويعد المستنيرين بالإصلاح والحرية ، ولكن سرعان ما كان يخلف الظن ويخيب الأمل . وقد تتلمذت القيصرة كاترين الثانية لفولتير والإنسيكلوبيديين . ولكن هذه التلميذة النجيبة المجدة كانت تخمد الثورات بقسوة وعنف ولم تكن فى إهمال حقوق الشعب وإهدار كرامته أحسن حالا من غيرها ، وكذلك كان حفيدها الإسكندر الأول ، فقد تتلمذ للاهارب ، وتحمس فى أوائل حكمه للإصلاح ، وأفضى به الأمر فى النهاية إلى ترك زمام الأمور فى يد الرجعى الرهيب أركشايف . وقد ظلت الرقابة على الصحف والمجلات والمعاهد والجامعات وبرامج التعليم قائمة فى روسيا طوال القرن التاسع عشر . وكان نظام الجاسوسية من الدقة والإتقان بحيث لا تخفى عليه خافية ولا تفوته حركة .

وكانت النتيجة المحتومة لهذا الضغط البالغ والحجر الشديد أن يضطلع الكتاب الخالقون والشعراء الفنانون بنقد الأحوال الحاضرة ، وتناول الشؤون الاجتماعية ، وتصوير النزعات الراهنة ، وحقائق الحياة الواقعة . ومن أشهر كتاب روسيا فى هذا المجال وأسبقهم فى هذا الميدان الكاتب الكبير مكسيم جوركى الذى ولد سنة ١٨٦٨ وتوفى سنة ١٩٣٦ . وقد

كان فى سنواته الأخيرة فى طليعة الشخصيات البارزة المحترمة فى روسيا الشيوعية ، بل كان يعد فى نظر قومه بطلا من أبطال الجهاد يحفه الإجلال والتعظيم . وقد غير البلاشفة اسم مدينة نجنى نوفجورد التى ولد فيها جوركى ، وكانت مسرح ذكرياته وقصصه ، وسموها « مدينة جوركى » . وكانت المصانع ودور التعليم وأندية العمال تتبارى جميعها فى حمل اسمه والعناية بأدبه . وكانت فكرة نشوء فن جديد وثقافة مجتمع لا تتفاوت فيه الطبقات ولا تتباين الأقدار تستمد منه الوحى وتلتمس عنده العون والتأييد . وكان الكتاب الناشئون يفخرون بأنهم مدينون لتشجيعه ، وأنهم يحيكون على منواله ويذهبون فى الأدب مذهبه .

وقد ناصر جوركى الثورة الروسية منذ بدايتها ، وكان من حملة أعلامها والمدافعين عنها ، وكانت له علاقات بأقطابها البارزين ، ولاسيما زعيمها الأكبر لينين . وقد عاونهم بقلمه وأيدهم برأيه ، وناضل عن الاشتراكية الشيوعية ، وتصدى لخصومها يسفه آراءهم ويفند حججهم . وكان نقد الثقافة البورجوازية وإبراز عيوبها من الموضوعات القريبة من نفسه ، الحبيبة إلى قلبه .

ولم يكن الرجل داعية من الدعاة كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما كان صاحب عقيدة ، ورب فكرة ، وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً مخلصاً أن الشيوعية هى طريق الخلاص ، وباب النجاة ، وأن لا سبيل إلى استنقاذ روسيا من الخرافات والأوهام ، وبعثها من الجمود والفتور المستولى عليها إلا بالشيوعية .

وقد نبغ جوركى من صميم الشعب الروسى ، ونشأ نشأة عجيبة قليلة الأمثال ، فقد كان أبوه إسكافا ، ومات وهو لم يبلغ الرابعة من عمره ، وكفله جده وأرسله إلى المدرسة مدة أشهر قلائل، ولم يمكنه فقره من إبقائه فى المدرسة ، واضطر جوركى إلى العمل فى سن مبكرة ، فاشتغل فى حانوت صانع أحذية ، وفى الثانية عشرة من عمره فر من منزل جده وأخذ يضرب فى الأرضين و يتقلب فى شتى البلاد ، واشتغل مرة باحدى البواخر يغسل الأوانى والصحاف ، وكان طاهى الباخرة رجلاً ضخماً عملاقاً له مشاركة فى الأدب وميل إلى القراءة والاطلاع ، وكان يقول لجوركى إن القراءة هى ألذ المتع وأبقى المسرات ، وقد أثرت كلمات هذا الطاهى الأديب فى نفس جوركى الغضة المتطلعة ، ثم عاد إلى جده ، ولكن سرعان ما اعتراه الملل ، ونبا به المقام ، فعاد يكدح فى طلب الرزق ، و يطوف فى البلاد ، وجاب إقليم الفلجا ، ووصل إلى ضفاف بحر الخزر ، وكان يعمل بهمة وعزيمة ، ولكنه كان يبيت أكثر لياليه خاوى الوفاض قد طواه الجوع وتلغبه السير .

وقد حاول وهو فى قازان — وكان فى الخامسة عشرة من عمره — أن يلتحق بإحدى المدارس ، ولكنه وجد عملا فى محل خباز ، ولم يلبث أن تركه واشتغل بستانياً ، ثم منشداً فى إحدى الكنائس ، وراقه بعد ذلك أن يعمل مع صائدى الأسماك فى أستراخان ، واشتغل مرة حارساً ليلياً بالسكة الحديدية .

وقد كان جوركى رجلا كبير النفس واسع الأمل ، فلم يسخط الحظ ، ولم يشك البؤس، ولم يَنِ عن إدمان التحصيل واستيعاب التجارب ،واختزان المؤثرات ، وقد مكنه ذلك من أن يلمس قلب الشعب ، ويفهم حاجات الطبقات الفقيرة ، ولف هواه بهواهم ، وعقد المودة الدائمة بينه و بينهم ، وقد كانت معايشته لهذه الأصناف المختلفة من الناس ، ودراسته لهذه الأنماط العديدة من الأخلاق من دواعى استثارة عبقريته ، ومن العوامل التى خلقت منه كاتباً فريد الطابع فذ الشخصية .

وشرع يكتب بعض القصص القصيرة فصادفت إقبالا ورحبت به المجلات الأدبية ، وفى سنة ١٨٩٨ ظهرت له مجموعة من القصص فى مجلدين لقيت رواجا . وفى مدى عام أو عامين أصبح ذلك الصعلوك الشارد الجوال الذى تقاذفته البلاد ، ولفظته مختلف المهن فى طليعة كتاب روسيا ، وترامت شهرته وعظم تأثيره حتى قرن اسمه باسم أديب روسيا العظيم طولسطوى والروائى الكبير تشيكوف .

وقد وصل جوركى إلى أوج شهرته عند تمثيل روايته « فى الأعماق » سنة ١٩٠٢ بمسرح موسكو . وقد انضم إلى معسكر الماركسيين واشترك فى تحرير مجلتهم ، وقد عطلت المجلة لأنها نشرت له قصيدة تنبأ فيها بالثورة القادمة ، و قبض عليه ونفى إلى نجنى ، وألغى انتخابه لأكاديمية العلوم ، فاستقال منها تشيكوف وكورلنكو احتجاجا على ذلك ، وعمل جوركى مع الثائرين الناقمين وحضر مؤتمراتهم

وفى أيام اشتداد الثورة الروسية استطاع جوركى بجاهه ومكانته عندزعماء الثورة أن ينقذ الكثيرين من الكتاب والمستنيرين من مخالب الموت و براثن الفقر ، وحاول جهده أن يلطف من ميول الثورة الحاطمة و يخفض من غلوائها . وقد نفعته فى ذلك السبيل صداقته المتينة لزعيم الثورة و كبير رجالها « لينين » . وليس غريباً أن تنشأ بين هذين الرجلين النادرين تلك الصداقة المتينة والتقدير المتبادل ، فقد كان لينين مفكراً ممتازاً وعالماً واسع الاطلاع قبل أن يكون زعيما سياسياً ، وثائراً هادما ، وكان يعرف جوركى و إخلاصه وحسن بلائه . وكان جوركى يسمع عن لينين قبل أن يراه و يعجب بشخصيته ، وقد رآه أول مرة فى لندن عند حضوره مؤتمر حزب العمال الروسى الدمقراطى الاشتراكى الذى عقد سنة ١٩٠٧ ، ولما التقيا صافحه لينين وحياه تحية حارة وفرح به فرحة الأديب بالأديب ، وقال له فى عرض الحديث : « أعتقد أنك من هواة النضال ، وستدور فى المؤتمر معارك تروقك » وقد حضر هذا المؤتمر كثيرون من الزعماء والقادة ، بينهم پليكانوف وتومسكى ومارتوف وروزالوكسمبرج . وقد وصف لنا جوركى لينين عندما جاء دوره فى الخطابة فقال: « أسرع فلادمير إلى منصة الخطابة وصاح بصوته المنبعث من الحلق « أيها الرفاق » ، و بدالى فى بادىء الأمر أنه لا يحسن الخطابة ولا يجيد الإلقاء ، ولكن ما هى إلا لحظة حتى استغرقنى حديثه ، وغمرنى تياره ، ولأول مرة فى حياتى أسمع مشكلات السياسة الصعبة المعقدة تعرض بأسلوب يسهل حزنها ، و يجلو دياجيرها ،

ولم أشعر بأنه يبذل فى ذلك جهداً أو يعانى مشقة ، وأنه يحاول أن يتخير الألفاظ المنمقة والتراكيب البليغة الطنانة ، وكانت كل كلمة من كلماته واضحة المخرج ، جلية المعنى ، ناصعة الدلالة ، ومن الصعب أن أنقل إلى القارىء ما تركه فى نفسى من أثر ... وخيل إلى أنه يزن كل لفظة ، ويقدر وقعها ، وأنه يتقصى نقدات خصومه ويتتبعها ، ويردها كلمى جريحة بحجج دامغة تؤيد حق العمال فى أن يسلكوا طريقهم دون أن يسيروا خلف البورجوازية الحرة ويتعلقوا بذيلها . . . وكانت وحدة حديثه واتساقه وقوته واتجاهه المباشر ووفاؤه بالغرض ومظهره على المنصة تكوّن فى مجموعها قطعة بديعة من الفن الكلاسيكى . وقد كانت خطبته أقل طولا من خطب غيره من الخطباء الذين سبقوه ، ولكن تأثيره فى النفوس كان أعظم وأبقى ، ولم يكن هذا شعورى وحدى ، فقد سمعت صوتاً يهمس خلفى «لقد قال شيئاً» وكان لا يصل إلى النتائج التى ينتهى إليها بكلفة وتعمل ، وإنما كانت كأنها تنمو من تلقاء نفسها ، وتبدو كأنها شىء لا مناص منه ولا سبيل إلى غيره»

ويصف لنا جوركى عطف لينين الجم على العمال وفرط عنايته بشؤونهم وبالغ اهتمامه بتفقد أحوالهم ، وينقل جوركى عن أحد العمال أنه قال فى الموازنة بين لينين وبليكانوف زعيم المنشفيك : « بليكانوف يشعرك على الدوام بأنه يلقى عليك درساً ، ويشرف عليك من حالق ، ولكن لينين يشعرك بأنه الزعيم الحق والرفيق »

وقد لاحظ جوركى أن لينين كان يتخفف من الطعام ، وكان قليل

العناية بنفسه ، موجها اهتمامه جميعه إلى العمال ، وقد سأل مرة جوركى أحد هؤلاء العمال : « ما هى أبرز صفات لينين ؟ » فأجابه العامل : « البساطة ، إنه بسيط مثل الحق نفسه »

وقبل الحرب الكبرى السابقة بأعوام قال لينين لجوركى فى أحد أحاديثه : « الحرب قادمة وليس لنا عنها معدى ولا مذهب ؛ وقد وصل عالم الرأسمالية إلى درجة الاحتمار العفن ، ولقد تسممت عقول الناس بعقاقير الوطنية والمغالاة فى النعرة القومية ، وأكبر ظنى أننا سنرى حربا أوربية عامة ، وسوف لا تجد الطبقات الفقيرة القدرة على اجتناب هذه المجزرة ، وكيف السبيل إلى ذلك ؟ هل يستطيع عمال أوربا الإضراب ؟ إنهم لم ينظموا بعد التنظيم الكافى ، وينقصهم الوعى الطبقى (أو الشعور بأنفسهم باعتبارهم طبقة متحدة) وليس فى وسعنا ساسة عمليين أن نعتمد على ذلك . . . . »

ثم التفت لينين إلى جوركى واسترسل قائلاً « فكر فى هذا مليا ، واعجب لقوم متخومين يدفعون بقوم جياع مهازيل إلى محاربة بعضهم البعض ، أرأيت جريمة أدل على الغباء والحماقة ، وأشد نكرا وفظاعة ؟ وسيدفع العمال ثمناً غاليا ، ولكنهم سيفوزون فى النهاية . وهذه هى إرادة التاريخ »

وكان لينين رجلاً صبوراً مجربا ، يعرف كيف يتلقى الضربات و يثبت للنوازل . قال مرة لجوركى « من الخير أن نلقى الفشل بالفكاهة والابتسام ،

والفكاهة صفة باهرة ، والحياة مضحكة بمقدار ما هى محزنة »

ولينين بلا ريب من أعظم شخصيات العصر الحديث ، وقد أحبه قوم حتى العبادة ، وكرهه قوم حتى ودوا لو أنهم يستطيعون رجمه بالأحجار ، وقد أثر فى تاريخ العالم تأثيراً بعيد المدى ، وكانت عقليته عقلية غير عادية ، وقد كوّن آراءه السياسية فى صدر حياته ، ولما تبلورت تلك الآراء لم يتحول عنها ، وكان يغير الأسلوب ولكن الهدف الذى كان يرمى إليه ظل واحدا ، وكان عقله فى صميمه عقل متعصب يعتقد أنه قد عرف الحق واهتدى إلى سبيله ، وكان كتاب « رأس المال » الذى وضعه كارل ماركس إنجيله ومصحفه ، وكان مع ثقته بنفسه واعتداده بآرائه لا يشمخ ولا يتكبر ، قال جوركى فى ذكرياته عنه : « لا أستطيع أن أتصور رجلا غيره قد بز الناس وسبقهم وأناف عليهم ، وبقى بعد ذلك مطرحاً لأهوائه بريئاً من الطموح ، لا يعنى بغير مصلحة الشعب ، ولا يفكر فى غير نفعه والنهوض به . ولقد كان فى شخصيته سحر يجذب نحوه قلوب العمال ويسيطر على عواطفهم ، وكانت له ضحكة خلابة صادرة من أعماق القلب ، ضحكة رجل قد عرف سخافة البشر السمجة البغيضة ، وذبذبة الأذكياء وتقلبهم وبهلوانيتهم ، وأصبح يجد متعة وروحا فى بساطة السليمى القلب الخالصى الطوية »

ويقول جوركى فى تبرير الشدة التى لجأ إليها لينين لحماية النظام الذى وضع أساسه : « إن واجب قادة الشعب المخلصين لما يخرج عن طوق البشر

فى الصعوبة ، والزعيم الذى لا يكون طاغية إلى حد ما من المحال وجوده . وقد قتل كثيرون فى عهد لينين ، ولكن لولا هذا القمع لأصبحت المقاومة التى لقيها النظام الجديد أوسع نطاقاً وأقوى عزما وأشد خطراً ، وعلاوة على ذلك فإن علينا أن نقيم وزناً لهذه الحقيقة ، وهى أن تقدم الحضارة قد قلل من قيمة الحياة الإنسانية ، ومما يثبت هذه الحقيقة فى الحياة الأوربية المعاصرة تقدم فن إبادة الناس واستساغة هذا العمل »

وفى موضع آخر من ذكرياته عن لينين يقول : « لقد طالما أفاض القائلون وأسهب الكاتبون فى رمى لينين بالقسوة والفظاعة ، وليس من أربى أن أقف ذلك الموقف المضحك الخالى من التبصر ، وهو أن أحاول تفنيد الأقاويل الكاذبة ، أو أن أرد على الشتائم والنمائم ، فإنى أعلم أن الكذب والتنقص وتشويه السمعة من الأساليب المتبعة فى السياسات البورجوازية الحقيرة ، ومن المتعذر أن نجد رجلا عظيما فى العصر الحاضر لم يقذف بالأوحال ، وهذا من الأمور المعروفة المألوفة ، وفضلا عن ذلك فإن هناك ميلا فى نفوس الناس إلى إنزال العظماء من مستواهم الرفيع وغمط حقوقهم . . . . ولقد كان فلادمير لينين يعرف أكثر من أى إنسان كيف يمنع الناس من البقاء على أسلوب الحياة الذى تعودوه وألفوه ، وكراهة عالم البورجوازية له كراهة عارية مكشوفة »

وحادثه جوركى مرة عن قسوة الأساليب الثورية فقال له لينين غاضباً: « ماذا تريد بذلك ؟ هل من الميسور أن نتصرف تصرفاً إنسانياً رحيما

فى معركة منقطعة النظير فى هولها وضراوتها ؟ وأين يكون مكان رقة القلب وكرم الأخلاق فى مثل هذه المعركة ؟ لقد حاصرتنا أوربا من جميع النواحى، وحرمنا من معاونة العاطفين علينا فى أوربا ، وكانت الحركة المناوئة للثورة تطالعنا من شتى الجهات ، فماذا تريد ؟ ألسنا على حق ؟ ألم يكن من واجبنا أن نجاهد ونقاوم ؟ وما هو المعيار الذى نرجع إليه فى تقدير الضربات اللازمة والضربات غير اللازمة فى الحرب والصراع ؟ »

ويحدثنا جوركى فى ذكرياته عن مضاء عزيمة لينين وقوة إرادته وقسوته على نفسه ، ففى أيام المجاعة كان يعف عن تناول الطعام الذى يرسله إليه الجنود والمزارعون . وكان يوزع ما يرسل إليه من الدقيق والسكر والزبد على المرضى والضعفاء من الرفقاء .

ولما لاحظ اعتلال صحة جوركى نصح له بالسفر إلى خارج روسيا ، وألح عليه فى ذلك ، ولم تنسه الواجبات الضخمة الملقاة على عاتقه السؤال عن صديقه القديم وزميله فى الجهاد ، والعناية بأخباره .

وقد ختم جوركى ذكرياته القيمة النفيسة عن لينين بهذه الكلمات التى أختتم بها هذا الفصل : « لقد مات فلادمير لينين . ولكن ورثة فكره وإرادته لا يزالون أحياء . وهم يتممون عمله ، ويكملون ما بدأه ، وعمله أكثر الأعمال انتصاراً فى تاريخ البشرية »

هذا ما قاله جوركى . ولكن هذا العمل يجتاز الآن محنة قاسية ويمر بتجربة شديدة . أتراه يتغلب عليها ويسمو فوقها ؟ هذا ما ستتكفل بالإجابة عنه الأشهر أو الأعوام القلائل القادمة